كعك العيد

قارب الشهر الكريم على الانتهاء... جاء موسم العبادة سريعًا ثم انفضَّ فربح من ربح وخسر من خسر... لم يتبقَ منه سوى أيامٍ قلائل لعل المقصر يدرك فيها بعض ما فاته من الخير فيفوز!

جلس (عبده) على سجادة الصلاة بعد أداء الفريضة يستروح بعض نسمات الهواء المنبعث من الشباك البحري الصغير المطل على "المنور" المتنفس الوحيد للشقة المخنوقة التي يقيم بها منذ نصف قرن هو وزوجته وأولاده، ومع تتابع هذه النسمات الرطبة تداعب وجهه، تداعت في ذهنه ذكريات مثل هذه الأيام في الماضي البعيد من رمضان... أيام الطفولة... أيام الشباب... بواكير حياته الزوجية...

واليوم خرج على المعاش وقد تقلصت إمكاناته المادية بشكلٍ مفزعٍ... صحيح إنَّ العيال كبروا وعاشوا حياتهم وفتحوا بيوتًا، لكن المصاريف هي هي، بل ربما زادت بعدما صحبه في رحلة حياته المتبقية المرض هو وزوجته مع تقدمهما في السنِّ...

وتمرُّ شهورٌ وتنقضي سنواتٌ ولا تزال (نفيسة) زوجته محافظة على تراث ماضيها الذي توارثته عن أمِّها وأمِّ أمِّها... فلا تحمل لها هذه الأيام من الروحانيات العظيمة سوى "عمايل الكعك" ولوازم العيد من العادات العتيقة البالية! حاول (عبده) التمرد على هذه العادات مرة بعد مرة، لكن سرعان ما يستسلم ويرضى بالأمر الواقع اتقاءً لغضب زوجته التي تستطيع أن تحيل العيد إلى مأتم، وهو رجلٌ مسنٌّ... "عضمة كبيرة"... لم يعد لديه القدرة على تحمل النكد، وربما رأى أن انشغالها في عمل الكعك يخفف عنه ضغط مناكفتها معه فيفرِّغه للعبادة... وبهذه الصورة كانت تسير الأمور عنده نوعًا بلا مشكلات، لكنَّ المشكلة الحقيقية التي يواجهها (عبده) هذا العام أنَّه أول رمضان يمرُّ عليه بعد خروجه على المعاش وقد انقطع راتبه وحلَّ مكانه معاشٌ هزيلٌ لا يتعدَّى ربع ما كان يتقاضاه من مرتبٍ، فكيف الحال الآن؟!

ربما تعرف (نفيسة) هذه الحقيقة فترحمه من مطالبها وتوفر عليه معاناة كل عام؟! وكما يقول المثل: "اللي ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى!"...

وبينا (عبده) لا يزال مستمتعًا بهدأة الجوِّ، يخشى أن يكون الهدوء الذي يسبق العاصفة، أو الهدنة التي تسبق الحرب...

فإذ بمخاوفه تتحقق فجأة، لينتبه من أفكاره على صوت زوجته (نفيسة) تناديه:

- عبدووووو... عبدووووو!

تشاغل عنها مخاطبًا نفسه:

"يعني هتعوز مني إيه؟! أكيد حاجة ماتستهلش!"

عاودت النداء من جديد وقد التقطت أذناه بعضًا من أطراف حوارها مع نفسها، وقد علا به صوتها:

- عجايب! هو الراجل ده مش سامعني؟! ولَّا عامل مش سامعني؟! هو كل ده بيصلي؟! هو بيصلي التراويح بالنهار كمان؟!

وفي لحظة كانت واقفة على رأسه، وقبل أن يجيبها أو يبرِّر لها تأخره في الردِّ بادرته بالسؤال:

- هو النهاردة كام في الشهر؟!

أجابها بهدوئه المعتاد وقد فهم مغزى سؤالها، لكنه راوغ قائلًا:

- إحنا لسَّة في آخر الشهر والمعاش بقبضه يوم خمسة في الشهر...

قالت بلهجة مستنكرة:

- راجل انتَ! أنا بسأل عن الشهر العربي... إحنا كام رمضان؟!

- إحنا في العشر الأواخر من الشهر الكريم، ربنا يتقبل منَّا ومنكم...

بدا على وجهها الامتعاض وقد استفزها ردُّه فقالت متأففة:

- استغفر الله العظيم... "اللهم طولك يا روح!" إيدك على فلوس الكعك!

- كعك إيه يا ست انتِ؟! إحنا صحتنا ماتسمحش بأكل الحجات دي...

- بقولك إيه... دي عادة ولابد منها... ربنا مايقطعش لنا عادة!

علم (عبده) بما خبره من صفات (نفيسة)، وقوة شخصيتها، وتمسكها برأيها أن لا جدوى من إقناعها بهزال معاشه أو بصحتها المعتلة، فوفَّر على نفسه التعب وقام بهدوءٍ إلى محفظته ففتحها ووضع بين يديها الورقة "أم مدنة" والحسرة تقتله... قلَّبتها بين يديها ساخرة، وقالت محتدة:

- ماتنفعش... الدنيا غلا... ودي ماتكفيش... هات كمان واحدة!

- انت بتتكلمي عن ورق كوتشينة؟! دي ميت جنيه... هي ميت جنيه قليلة؟!

- انتَ مش عايش في الدنيا؟! الأسعار ولَّعت... ما ليش دعوى هتقولي المعاش قليل وأنا ما معييش... دي مرة في السنة... اتصرف!

لم يجد أمامه إلَّا أن ينهي النقاش بأيَّةِ وسيلةٍ، فقدَّم لها خمسين جنيهًا، وقال:

– ده آخر ما معايا... خلاص مش قادر أتكلم... ما تضيعيش صيامنا!

انصرفت (نفيسة) وقد تملَّكها الغضبُ بعد ما أنهكها طول الحوار... وقالت في نفسها مزمجرةً:

انتَ هتروح مني فين؟! كفاية عليك كده النهاردة... ربنا يقدرني واخد كل اللي أنا عيزاه منك... هو أنا لسة خدت منك حاجة!

وبعد يومين من العمل المتواصل في صنع ما لذ وطاب من الكعك مع الأصحاب والجيران تحوَّل معها البيت إلى معسكرٍ تكلَّف فيه ربُّ البيت من المشقة والإزعاج ما أرهقه وأهدر طاقته...

وجاء يوم العيد وقد ازدحم البيت وأغلب جوانبه بأكوامٍ مكدسةٍ من الكعك على كافة أشكاله وألوانه بما يمثِّل ثروةً ضائعة في نظر (عبده)، وثروةً لا تقدَّر بثمنٍ في عيني (نفيسة)!

وازدحم البيت بالأبناء والأحفاد...

تقدَّمت كبرى بناتها بهدية للأمِّ، ووضعتها بين راحتيها... كانت علبة كبيرة... فتحتها الأمُّ لتجد كعك العيد، ويتصدَّر العلبة اسمٌ لمحلٍ شهيرٍ...

أسرعت الأمُّ لتقول:

- ليه يا بنتي كلِّفتِ نفسِك! ده أنا عملت كعك العيد وعملت حسابكم كلكم!

أجابت الابنة متعجبة:

- هو لسَّة في حد بيعمل الحجات دي دلوقتي؟! لا إحنا بناكلها ولا ولادنا بيكلوها!

نظر الأبُ إلى زوجته نظرةً لائمةً... تمتم بكلماتٍ خافتة كمن يحدث نفسه:

- مش قلنا كده من الأول... ولَّا هي مصاريف على الفاضي!

أجابت الأمُّ زوجَها وابنتَها في جملةٍ واحدةٍ:

- دي عادة... وربنا ما يقطعش لنا عادة!

*****